العظم والي الشام.. ووالي أضنه وأحمد باشا الجزار محافظ السواحل بمساعدة الأسطول.

وفي الأول من آب عام 1775م أطل على عكا مركبان، ثم أخذت أعداد المراكب تزداد حتى بلغت 15 مركباً مسلحة أتم التسليح بالمدافع، وأخذ ظاهر يستعد للقتال ومنازلة الأسطول، وأخذت المدفعية تنطلق بكثافة باتجاه أبراج أسوار عكا فتهدمها. واشتد الخلاف بين ظاهر وابنه عثمان الذي كان يتراسل سراً مع (حسن باشا) قائد الأسطول، فكان ظاهر يأمر جنوده بضرب الأسطول وعثمان يمنعهم فوقع الجنود في حيرة من أمرهم، وأخذوا يوجهون مدافعهم إلى البحر بعيداً عن المراكب.

وخرج ظاهر هارباً بعياله باتجاه (قلعة هونين) ولما ابتعد عن عكا مسير ربع ساعة تذكر محظيته وزوجته الأخيرة (عائشة) فعاد ليأخذها فوجدها بطريقها إليه ولما حاول أن يردفها خلفه على الجواد لم يستطع لوهنه وضعفه فوقع عليها، وهناك عاجله (الدنكزلي) وأطلق عليه الرصاص فصاح وهو يتخبط بدمه "اللهم أحمدك لها شهادة لعرضي" وكان ذلك في 16 آب 1775.

وقد أشيع: أن (عثمان الظاهر) هو الذي أوعز إلى الدنكزلي بقتل أبيه.

تشتت الأسرة ومقتل علي الظاهر

تضاربت الأنباء بمصير أبناء ظاهر بعد مقتله، فمن قائل أن أحمد الجزار قد سجنهم في عكا وأخذ يخنق كل يوم عدداً منهم ويرميهم في البحر، ولم ينج منهم إلا من هرب واختبأ في البلاد بعيداً عن عيون رجال السلطة إلا أن (ميخائيل نقولا الصباغ) صاحب كتاب (تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني) يقول بأن حسن باشا لما عاد إلى استنبول برأس ظاهر وأمواله وإبراهيم الصباغ وأمواله ترك أولاد ظاهر وشأنهم متحصنين في قلاعهم وكذلك فعل أحمد الجزار إلا أنه كان يترقب الفرص للإيقاع بهم.

ولهذا بقي عثمان الظاهر وهو الابن الأكبر يتحصن في قلعة (شفا عمرو) ويعد نفسه وارث الأمر بعد أبيه، إلا أن أخاه علياً كان ينازعه على ذلك وكان علياً محبباً إلى الجميع لكرمه وبأسه وشجاعته وعقله وحزمه ولما عاد حسن باشا الجزائري إلى عكا 1776م ليعيد البلاد إلى لماعة السلطان، عزم عثمان على التقرب إليه، فكتب لأخوته يدعوهم للمجيء إلى عكا وهو يأمل من حسن